ترجمات | الفلسفة والعلوم الإنسانية | 15 أبريل 2020

الإنفلونـزا الإسبانيـة
عودة إلى وباء 1918 - 1919

فريدريك فانيورون
ترجمة: محمد حبيدة

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020
All rights reserved © 2020

الإنفلونزا الإسبانية
عودة إلى وباء 1918-1919

فريدريك فانيورون[1]
ترجمة محمد حبيدة

1 Frédéric Vagneron, «La grippe espagnole: une historiographie centenaire revisitée», *Ler Historia*, 73/2018, pp. 21-43

هذه بعض المشاهد والأرقام من جائحة 1918: صورٌ لجنود أمريكيين مزكومين، وهُم في ثكنات مزدحمة في خريف عام 1918، سرود مأساوية لضحايا الزكام وشهادات أقربائهم، عجز الأطباء وبطولاتهم في مواجهة الحالات الميؤوسة من شفائها، شخصيات شهيرة عصف بها المرض، صور مجهرية لفيروس الإنفلونزا، أرقام لضحايا الوباء تتراوح ما بين 50 و100 مليون من الموتى... مهما كانت اللغة، يكفي النقر على محرك البحث غوغل بالشبكة العنكبوتية لكي يصاب المرء بالدَّوْخة، مثل صندوق باندورا يخرج منه سيل من المصادر، حيث تتصادم المعارف التاريخية والبيولوجية. منذ مئة عام، حيث عمت عدوى الإنفلونزا الإسبانية، تعددت الأمكنة والأزمنة والأرقام حول حدثٍ كارثةٍ شاملة.

لم يهتم المؤرخون بموضوع الزكام الإسباني إلا في وقت متأخر، ابتداءً من نهاية سبعينيات القرن الماضي، بالمقارنة مع الأطباء والبيولوجيين المختصين في علم الأوبئة والأبحاث المخبرية الذين، منذ سنة 1918، واجهوا اللغز الطبي لهذه الجائحة. منذ سنوات 1980، تأثر سؤال المؤرخين بالطلب على التاريخ و«دروس الماضي» حول الأوبئة. ويترجم هذا الطلب الصلة الجديدة المتشائمة أمام تهديدات الأمراض المعدية، مع ما دشنته جائحة الإيدز. فبعد مرحلة اعتقد فيها الإنسان أن الأوبئة قد صارت أثرا من آثار الماضي المخيفة، بفضل الطب «الحديث» والتجهيزات الصحية الجديدة، العلاجية والمضادة للجراثيم، وتحسن ظروف العيش، عادت الجوائح إلى المعيش اليومي وإلى مخيال مجتمعاتنا، وحتى إلى مستقبلهم المنظور. وفي هذا التحضير لما قد يقع من سيناريوهات تفاديا للأسوأ، تقدم الإنفلونزا الإسبانية نموذجا وفهرسا لمصادر فوق العادة. لكن الولوج غير المسبوق إلى الوثائق التاريخية المرقْمَنة ومظاهر القلق الجديدة إزاء الأمراض، كلها أمور تغطي على خاصية عمل المؤرخ، وذلك بالقياس إلى السؤال التاريخي الذي يتحكم في الجمع المنظَّم للمصادر. في الواقع، تخفي وفرة المصادر هذه «المكانة المتحركة للثغرات» كما يقول بول فاين. ولذلك، «يكافح المؤرخ ضد التصور الذي تفرضه الوثائق». وكما يذكِّر بذلك لوسيان فيفر: «لا تاريخ من دون أسئلة، لأنه ليس مجرد روايات وتجميعات».

تحلل هذه الدراسة «امتدادَ قائمةِ الأسئلة» التي طرحها المؤرخون على مر الزمن بخصوص الإنفلونزا الإسبانية، مما يمكِّن من مواجهة تطور النصوص المستعملة والأسئلة، ورصد الأداء التفسيري والبقع البيضاء المرتبطة بمختلف المقاربات التاريخية، ومستويات تلقِّيها لدى عموم القراء. وتضع هذه الدراسة أيضا نصب أعينها استعمالات التاريخ لهذه الإنفلونزا، اليوم، في وقت أصبح فيه حدث «الإنفلونزا الإسبانية»، من باب المفارقة الظاهرية، راهنياً أكثر من أي وقت مضى، رغم تشتت الدراسات التاريخية. أولا وقبل كل شيء، تتيح الأدبيات ذات الصلة بهذا الموضوع إثارة أسئلة شائكة بالنسبة إلى كتابة التاريخ على مستويات متعددة: أشكال إنتاج المعرفة التاريخية من خلال تجديد الأسئلة والوثائق، استعمال المؤرخين للمقولات

والمفاهيم التحليلية (حدث، وباء، مرض معدي) لتفسير الماضي، وأخيرا مكانة المؤرخ المحترف وما يكتبه بالقياس إلى حركيات الماضي الأخرى ضمن المعركة المتواصلة، ذات الراهنية دائما، للحديث عن مرحلة ولّت والكتابة عنها، علما بأن المؤرخين لا يملكون سلطة الكتابة عن الماضي على نحو حصري. هذا لأن تخصصات علمية أخرى، مثل علم الفيروسات والأوبئة، وذاكرة الشاهدين أيضا، تساهم في تشكيل تاريخ هذا الوباء. ولذلك، تبقى الكتابة التاريخية مرتبطة بالعلاقات المقامة بين خطابات المؤرخين والخطابات الأخرى حول الماضي.

وتظهر بعض الأسئلة باستمرار في الأدبيات حول الإنفلونزا الإسبانية عند ملتقى مختلف الأبحاث: أصول الإنفلونزا وتفشيها، عدد ضحاياها في بؤرها وعند تنقلها، الرد الاجتماعي على الجائحة، العلاقة بين الجائحة والحرب. وفي عملية المعالجة، انطلاقا من أخبار ومعارف متنافرة، تتغلب الأسئلة على بعضها البعض بصورة مؤقتة. وقد ظهرت أسئلة أخرى فيما بعد، خلال القرن العشرين، نتيجة المسافة الزمنية مع الحدث. مثلا، سؤال «نسيان» الوباء على مستوى الذاكرة الجماعية، تلك الفرضية التي يطرحها المؤرخ الأمريكي ألفريد كروسبي، أو تلك المتعلقة بمكانة هذه الجائحة في الزمن الطويل لتاريخ الزكام والأمراض المعدية.

وكما وصف ذلك أحد رواد تاريخ الإنفلونزا الإسبانية، المؤرخ الجنوب إفريقي هُوارد فيليبس، يمكن الحديث عن بروز إسطوغرافيا عالمية خاصة بتاريخ هذه الإنفلونزا خلال القرن العشرين من زاوية المستويات التأويلية المميزة منذ سنوات 1920. ومن دون ادعاء جرد مجموع الأدبيات التي أنتجها المؤرخون، نميز في هذا المسح الكرونولوجي العام بين أربع لحظات. توافق اللحظة الأولى الأبحاث التاريخية المبكرة الدقيقة عن هذه الجائحة إلى غاية سنوات 1970. وترتبط اللحظة الثانية، بانكباب المؤرخين على توصيف جائحة عالمية، باعتبارها فسيفساء من الكوارث المحلية على مستوى الكوكب. وفي المدة الأخيرة، تناولت الأعمال التاريخية الوباء كتجربة متعددة ومجزَّأة، كونها كشفت النقاب عن بنيات اجتماعية وعن تعبئة المجتمعات التي شاركت في الحرب العالمية الأولى. وأخيرا، مقاربة إسطوغرافية أدمجت حدث 1918-1919 في تاريخ أكثر امتدادا، يعود إلى أواخر القرن التاسع عشر، بالقياس إلى التحديات التي طرحها هذا المرض على المعارف «الحديثة»، وعلى تدخلات الطب والصحة العمومية، كما على تاريخ الأمراض.

1. أولى الأبحاث عن الإنفلونزا الإسبانية: صمت المؤرخين

يشمل المستوى الإسطوغرافي الأول الأبحاث المبكرة عن هذا الوباء منذ انحساره، حتى سنوات 1960. في هذه المرحلة الأولى والطويلة، كان غياب إنتاج المعرفة عن الوباء من قِبل المؤرخين ملحوظا، حيث غلبت المقاربة العلمية الصرفة، الوبائية والطبية. وقد تحكم في هذا المستوى من الكتابة الضرورة المستعجلة التي أملتها شهادة المختصين في الطب والصحة العمومية، الذين كانوا يخشون عودةً قريبةً لهذا الوباء الذي صعب تفسير ظهوره في مطلع عام 1918، وعنفه واختفائه، حيث ارتبط المعنى الذي بُحِث عنه لتفسير الوباء بلغة الطب وعلم المختبر في أعقاب اكتشافات الفرنسي لويس باستور والألماني روبيرت كوش.

على الرغم من المحاولات التي سعت إلى وضع مصنف دولي لِـ «الانطباعات الفورية وللبيانات الأولى التي تم تجميعها عن الوباء»، كما يتضح من التقرير الذي كتبه الطبيب البرتغالي ريكاردو خورخي عام 1919، لم تسفر هذه الدفعة الأولى من الأعمال إلا عن معرفة محدودة لمجريات حدث وباء 1919-1918، مما يتعارض مع الوباء السابق الذي ضرب الناس عامي 1890-1889 (الإنفلونزا الروسية). لكنها مكنت، في المقابل، من معارف وبائية وديموغرافية أكيدة، كما هو الشأن بالنسبة إلى توصيف الموجات الوبائية الثلاث الأولى المتباينة نسبيا بين ربيع 1918 ونهاية فصل شتاء 1919، أو تلك الهشاشة الهائلة التي اتصف بها الشباب إزاء الإنفلونزا بالقياس إلى أعمار الحياة الأخرى، من شيوخ وأطفال. وقد استعادت هذه الموجة الأولى من الكتابات الطبية والعلمية حيويتها مع تحديد هوية فيروس الإنفلونزا في بداية سنوات 1930، مما عزز هيمنة الأسئلة البيولوجية والطبية على البحث التاريخي.

لم يدخل وباء 1919-1918 تدريجيا في ميدان اشتغال المؤرخين إلا انطلاقا من نهاية سنوات 1950، مع ظهور جائحة زكامية جديدة: الإنفلونزا الآسيوية لعام 1957 التي شكلت ثاني جائحة من هذا النوع خلال القرن العشرين، والتي فتحت مرحلة ثانية من الإنتاج العلمي عن وباء الإنفلونزا الإسبانية. فقد كشفت جائحة 1957، عبر ما تسبَّبت فيه من قلق، عن محدودية المعارف حول تجربة المجتمعات إبان جائحة 1918-1919، التي ارتكزت حصريا على المظاهر الطبية. كما مكَّنت من «إيقاظ الذاكرات النائمة»، وفق تعبير هُوارد فيليبس، وأثارت الاهتمام بالأبعاد الاجتماعية لهذه الجائحة. لقد أخذت الدراسة، بالخصوص، شكل سرد لمرحلة مأساوية، على غرار البحث الذي أنجزه المؤرخ الأمريكي أدولف هوبْلينغ، عام 1961، تحت عنوان «الوباء العظيم»، حيث عاد إلى هذه الجائحة اعتمادا على صحف المرحلة وعلى التقارير العلمية والطبية. ومن جهتها، خلقت إنفلونزا هونغ كونغ عام 1968، وهي ثالث جائحة عرفها القرن، عودةً إلى حدث 1918. في هذا الصدد، نشر تشارلز غرايف عام 1969 دراسته «هجوم الفيروس: هل يفعلها مرة

أخرى»، قدَّم فيها محاولة أولى لحصيلة عالمية عن الإنفلونزا الإسبانية، انطلاقا من الخسائر الديموغرافية في كل بلد من البلدان المتضررة ومن مقاييس الحماية الصحية المتبعة من طرف السلطات. بعد ذلك ببضع سنوات، اقترح كتاب ريتشارد كوليه «الوافدة الإسبانيولية» (1974) إعادة بناء الوباء عبر شهادات المعاصرين، حيث وضَّب المؤلِّف دراسةً تقوم بصفة رئيسية على الروايات الشفهية التي تمنح الحياة للوباء بواسطة ضحاياه. لكن هذه الكتب تتلخص بالدرجة الأولى في الإخبار بالحدث.

2. الإنفلونزا الإسبانية كفسيفساء عالمية من الكوارث المحلية

تغيرت مقاربة المؤرخين إزاء الإنفلونزا الإسبانية في مطلع سنوات 1970. ويوافق هذا التغيير ظهور دراسات تاريخية عن الوباء، ابتعدت عن السؤال الطبي الصرف والحدثي والمأساوي. وتعكس هذه الدراسات تحوّلا في السِّجِل بين تخصصات العلوم الاجتماعية وموضوع الطب، الذي ظهر خلال هذه المرحلة وعدَّل اتجاه الأبحاث عن الوباء. ويتضح هذا التجديد في مقاربة الطب والصحة في ميدان العلوم الاجتماعية، حيث حُمِل على جناح النقد، على صعيدٍ عالمي. ومعنى ذلك، ظهر تاريخٌ اجتماعي جديد مهتم بالطب وتاريخٌ بيئي، لكنهما لم ينجما فقط عن أبحاث المتخصصين، وإنما شكَّلا جزءاً لا يتجزأ من مادة التاريخ، التي انفتحت على العقليات ثم على التمثلات والعلاقات الدينامية بين المعارف والمجتمعات، وعلى الممارسة الاجتماعية للعلوم.

انعكس هذا الاتجاه على تاريخ وباء 1918-1919. ففي هذا التاريخ الجديد للإنسان وبيئته، يعد كتاب ويليام ماكنيل عن تاريخ الأوبئة (1978) معلماً بارزاً، حيث «اعتبر الإنسان سجينا لتوازن هش بين الطفيليات المجهرية للعضويات المسبِّبة للأمراض والطفيليات الكلية للحيوانات الضارية، والتي عليه أن يأخذها بالحسبان». لقد جعل المؤلِّف من وباء الإنفلونزا الإسبانية حلقة من حلقات القطيعة التي عرفها هذا التوازن الهش بين الإنسان ومحيطه. في الولايات المتحدة الأمريكية، تطورت هذه الأبحاث الجديدة في العلوم الاجتماعية مع التهديد الوبائي الجديد الذي ظهر في بداية عام 1976: وفاةُ جندي شاب إثر ضيق في التنفس بقاعدة فورت ديكس داخل وحدة عسكرية في ولاية نيوجيرسي. كان الأمر يتعلق بفيروس زكامي من صنف ألِف (إتشْ وانْ إنْ وانْ)، حيث بادرت السلطات إلى القيام بتلقيح جماعي للسكان الأمريكيين، مع أن الوباء لم ينتشر في نهاية المطاف إلا بصورة محدودة في أوساط المدنيين، مما أدى إلى أزمة سياسية، خاصة مع انقضاض الصحافة على هذه القضية التي اشتهرت بفضل كتاب ريتشارد نوستادت وهارفي فينبورغ الصادر عام 1978: «إنفلونزا الخنازير».

في هذا الوقت بالذات، أصدر المؤرخ الأمريكي ألفريد كروسبي أول كتاب مرجعي ضمن هذا التصور الجديد للتاريخ الاجتماعي والسياسي. ففي هذا الكتاب، «الوباء والسلام» (1976)، درس العواقب الاجتماعية والسياسية للوباء في الولايات المتحدة، الذي ابتدأ في منطقة البحيرات الكبرى، حيث ذهب ضحيته الرئيس الأمريكي وُودرو ويلسون في مطلع عام 1919 خلال محادثات السلام بين فرقاء الحرب العالمية الأولى. صار السياق الوبائي عاملا مواتيا لمساءلة الأحداث السياسية والعسكرية لعامي 1918 و1919، وحتى الأبعاد الإنسانية لقرار السلام الذي وضعت لمساته الأخيرة معاهدة فيرساي. وقد حاز الكتاب على جائزة رابطة الكتاب الطبيِّين الأمريكيين لأفضل كتاب في موضوع الطب المدني. لقد مثَّل تجديد موضوع التاريخ والعلوم الاجتماعية انطلاقا من سنوات 1970 علامةً قوية في دراسة هذا الوباء، إذ اندمج، من ثمة فصاعدا، في حقل دراسات التاريخ الاجتماعي للطب. كما كانت هذه المرحلة مفصلية من الناحية الكمية: عام 1998، قدَّر هُوارد فيليبس نسبة الكتب التي عالجت وباء 1918-1919، والمنشورة منذ عام 1974، بثمانين بالمائة.

وقد تعززت هذه الراهنية الجديدة بعودة تهديد الأمراض المعدية في البلدان الأكثر تقدما. والأكثر من الجوائح الزكامية لأعوام 1957 و1968، ضربت جائحة الإيدز المجتمعات الغربية، وتركت آثارا في مخيلاتها في بداية سنوات 1980. ويطرح عجز العلماء عن تحديد هوية الفيروس المسبب للمرض، والشك في سُبل تفشي الوباء، وردود الفعل العامة على المواقف من المرضى، مشكلةً جديدة وملحة عند ظهور الجائحة، والتي تقطع مع الشعور بالأمان إزاء أمراض الماضي المعدية، الذي كان قد تقوّى بعد 1945 بفضل نجاح المضادات الحيوية. ويحفز الوباءُ مصلحةَ المؤرخين والطلبَ الاجتماعي على المعارف المرتبطة بحالات الخوف العظمى الماضية، كلما خُدش اليقين في تقدم الطب ومكافحة الأوبئة. هذا ما توحي به منشورات كامبريدج الجامعية التي أعادت عام 1989 نشر كتاب ألفريد كروسبي الذي درس إنفلونزا 1918-1919: «الجائحة المنسية» (1989).

توافق أعوام 1980-1990 مرحلة من التطور الإسطوغرافي وتعدد الدراسات عن الإنفلونزا الإسبانية؛ فقد كثرت الدراسات الإقليمية والمحلية الخاصة بمختلف أنحاء العالم التي مسها الوباء، والتي كانت إلى ذلك الحين قليلة الاستناد إلى الوثائق. ويتجلى هذا التعدد على مستوى الأبحاث في تحقيقات على صعيد القرى والمدن والأقاليم، كانت قد ارتبطت بتيارات إسطوغرافية قائمة الذات، مثل الدراسات الحضرية والكولونيالية. ويطرح إقلاع الكتابة التاريخية هذا مشكلة تفتت المعرفة وملاءمتها مع ميدان تاريخ الصحة، ومنافستها لتاريخ تقليدي على طراز الفوز على المرض في المعركة. وتظهر بكل وضوح ندرة الدراسات المقارِنة بين البلدان التي واجهت الوباء، والتي تدعو إليها مع ذلك هذه النظرة المحلية، في ضوء بعض

الاستثناءات. هكذا، أدمج المؤلَّف الجماعي الذي أشرف عليه جايْ وينتر وجون لويس روبيرت (1997) وباء 1918-1919 في دراسة مقارنة لتجارب الحرب في مدن باريس ولندن وبرلين. وضمن رؤية تاريخ المدن هذه، حاول كتاب جماعي آخر أداره فْريد فان هارتيسفيلت (1992) نهج هذه المقارنة، لكن حجم تنافر سياقات الوباء ومقاربات المؤرخين جعل التركيب انطلاقا من تجميع التنقيبات صعبا. وينضاف إلى شتات المجالات الجغرافي تعدد رؤى العلوم الاجتماعية، بين الجغرافيا والأنثروبولوجيا والديموغرافيا والتاريخ.

عام 1998، وقف المؤتمر الذي انعقد بمدينة الكاْب بجنوب إفريقيا، بمناسبة مرور ثمانين سنة عن الوباء، على ثغرة الدراسات التركيبية العالمية في الكتابة التاريخية، والتي سعى إلى سدها المشرفان هُوارد فيليبس ودايفد كيلينغراي. لقد شكل هذا المؤتمر أول محاولة لرسم لوحة كاملة للأبحاث التاريخية عن الإنفلونزا الإسبانية. فقد جمعت «الرؤى الجديدة»، التي أبان عنها المؤلفون، بين الدراسات العلمية الوبائية، والديموغرافية والتاريخية، أخذا بعين الاعتبار تسليط الضوء على جميع أنحاء العالم، والتأسيس لحوار بين المؤرخين والمختصين في العلوم البيولوجية والطبية. من هذه الزاوية، التي ركزت على جائحة 1918-1919، وأدمجت عواقب الوباء الديموغرافية ذات الأمد البعيد، تميز المؤتمر بمقاربة تناهجية لمختلف السياقات المدروسة. لقد تمثلت مساهمة هذا الملتقى العلمي الأكثر دقة في جهد المؤرخين الجماعي لتقييم حصيلة الوفيات التي تسببت فيها الجائحة على الصعيد العالمي.

أفضى تعدد الدراسات إلى إعادةِ تقييمٍ متواصلة لوفيات الإنفلونزا الإسبانية؛ فبينما قُدِّرت هذه الوفيات دائما بالقياس إلى الحرب العالمية، منح لها تدويل الأبحاث بعدا غير مسبوق من حيث الحجم. في الواقع، تعود أولى التقديرات إلى سنوات 1920. كانت دراسة الأمريكي إدوين جوردان قد شكلت أول عملية إحصائية للخسائر البشرية لهذه الجائحة، إذ اقترح 21.6 مليون ضحية لكل مدة الوباء، بالنسبة إلى ساكنة العالم المقدَّرة بِـ 1.8 مليار من البشر في ذلك الوقت. وفي عام 1935، اعتبر البريطاني باتريك ليدلاو، المختص في علم البكتيريا، والذي كان واحدا من بين أعضاء الفريق العلمي الذي تمكن من عزل أول فيروس زكامي بشري، أن عدد الموتى بالوباء المذكور بلغ 15 مليون شخص، من أصل 500 مليون مصاب. واستعاد ألفريد كروسبي عام 1976 هذه التقديرات، رغم البحث الديموغرافي الذي كان قد أنجزه كينغسلي دايفس سنة 1951 عن الهند وباكستان، والذي قدَّر عدد الضحايا خلال جائحة 1918 بالنسبة إلى هذه المنطقة وحدها بِـ 20 مليون ضحية.

ابتداءً من سنوات 1980، ساهمت الدراسات، التي همت المجالات الجغرافية التي افتقرت لإحصائيات دقيقة، في مراجعة الحصيلة. بين عام 1980 ومطلع سنوات 1990، نُشرت أبحاث عن الجائحة ببلدان

إفريقية وآسيوية وأوقيانية. ويقدم مقال دايفد باتيرسون وجيرالد بايل عن جغرافية وفيات وباء 1918 حصيلة جديدة، أخذا بعين الاعتبار أحدث النتائج. فقد قدَّر الباحثان هذه الوفيات بين 24.7 و39.3 مليون ضحية. وقد نجم هذا الارتفاع عن حصيلة مضاعفة بالنسبة للأرقام المتداولة من قبل بخصوص إفريقيا وروسيا أو أندونيسيا. وتبقى هذه الأرقام مختلفة كثيرا عن أرقام جوردان حول الصين والهند (بما في ذلك بنغلادش وباكستان). ففي هذه الدراسة وتلك، قدِّرت الوفيات، من ثمة فصاعدا، انطلاقا من نسبة تتراوح بين 4 و9.5 مليون ضحية من أصل 400 إلى 475 مليون نسمة، ومرت بالنسبة إلى جوردان إلى ما بين 12.5 إلى 17 أو 18 مليون ضحية بخصوص الهند وحدها. ففي هذين البلدين، قاربت النتيجة تقريبا نصف الحصيلة العالمية. ولذلك، تضخمت الأرقام، ومعها حجم الكارثة الصحية التي عرفها العالم.

وتعود آخر حصيلة عالمية عن وفيات هذه الجائحة إلى عام 2002، مع نيال جونسون ويورغن موليز، حيث استندت إلى الدراسات المقدَّمة في مؤتمر الكابْ عام 1998، السالف الذكر. اقترح الباحثان نسبة جديدة تتراوح بين 50 و100 مليون ضحية، وذلك بالاعتماد على بيانات جديدة خاصة بالصين. وتُعتبر هذه النسبة، التي خلصت إلى نسبة وفيات تأرجحت ما بين 2.5 و5 بالمائة على صعيد ساكنة العالم، عريضةً جدّا. وقد نجم هامش الشك في هذه الأرقام عن استحالةِ الحصول على أرقام خاصة بكل بلد على حدة، بالنسبة إلى كل موجات الوباء (موجات 1918-1919 الرئيسة، وتلك التي ضربت في مطلع عام 1920 بعض مناطق العالم)، وصعوبةِ التمييز بين الوفيات التي تسبَّبت فيها الجائحة الزكامية وتلك الناجمة عن التعفن البكتيري. يبقى حساب هذا التضخم في الوفيات إشكاليا بالنظر إلى ثغرات البيانات الإحصائية وصعوبة التشخيص المقارن بين الإنفلونزا وباقي الأمراض التنفسية. ولذلك، كانت عملية الحساب هذه تتم، إما بالمقارنة مع السنوات السابقة بالنسبة إلى الزكام وأسباب الوفاة الخطيرة الأخرى (أمراض الجهاز التنفسي بالخصوص)، وإما باستقراء الأرقام المتوفرة عن مجموعات بشرية بعينها، وتطبيق نسبة وفيات معادلة. وقد أسفر هذا البحث عن حصيلة مضاعفة بالمقارنة مع الأرقام التي تداولتها الدراسات خلال القرن العشرين.

لقد شكل مؤتمر 1998 علامة فارقة في مجرى الأسئلة التاريخية. في هذه المرحلة، بدا برنامج التاريخ الكلي لجائحة الإنفلونزا الإسبانية بواسطة تراكم المونوغرافيات المحلية، متجاوزا تدريجيا بحكم الأسئلة المطروحة على الوباء. وإذا كان قد أسفر، من دون شك، عن نتائج معرفية ذات تأثير بخصوص الوباء بتوثيق عدة سياقات محلية، منها بالخصوص المراجعة المتواصلة لحصيلة الوفيات، فإن هذا البرنامج بقي مع ذلك في مأزق، بالقياس إلى ما عرفته ميادين تاريخية أخرى كانت قد انطلقت من فرضية مفادها «أن المعرفة الشاملة تتقدم بتراكم المعارف المحلية» كما قال المؤرخ الفرنسي بيرنار لوبوتي.

ولذلك، يظل نشوء تاريخ الإنفلونزا الإسبانية على النحو الذي كتبه المؤرخون متأخرا، مع نهاية سنوات 1970 بصورة رئيسة. لقد وصفت الأبحاثُ التاريخية الجائحةَ باعتبارها حدثا فوق العادة، ظهر واختفى فجأة بشكل غير مسبوق، وذلك وفق منهج كرونولوجي حدثي لكارثةٍ تتضح في فشل محاولات السلطات السياسية والصحية في حماية الأهالي، وفي غياب الوسائل العلاجية المناسبة والمعارف بخصوص الفيروس. انطلاقا من القاسم المشترك للوفيات، وعجز السلطات الصحية، وفشل المعارف الطبية، راكم المؤرخون مونوغرافيات محلية، من دون التوصل مع ذلك إلى تركيب صورة عامة للجائحة عبر مشاهدها المحلية.

3. تفتُّت الحدث: تجربة الإنفلونزا الإسبانية في وجه الأسئلة الجديدة

منذ عام 1998، السنة التي توافق ظهور تهديد إنفلونزا الطيور في هونغ كونغ (1997) وبروز سياسات الإعداد ضد تفشي الجوائح، تفرَّدت الأبحاث التاريخية بتنوع المقاربات إزاء هذه الجائحة، وبشكل عام إزاء تاريخ هذا المرض. وبما أن مسألة حجم الحدث قد التصقت دائما بانتشار الفيروسات الزكامية على الصعيد العالمي، فإنها؛ أي هذه المسألة، اتخذت سمة إشكالية انطلاقا من تعدد التنقيبات التي عقَّدت السرد التاريخي حول الجائحة العالمية. في أمريكا الشمالية بالخصوص، جرى البحث في «الإنفلونزا الإسبانية» حسب إشكاليات متجددة في إطار تاريخ المجموعات المحلية والتراتبيات الاجتماعية التي وضعها الوباء على المحك. لقد سلطت هذه الأعمال التاريخية أضواءً جديدة على فرضيتين أكيدتين من فرضيات الإسطوغرافيا السابقة فيما يتصل بهذه الإنفلونزا: فرضية نسيان الجائحة من الذاكرة الجماعية، الذي يرتبط عموما بإطار الدراسة الوطني، وفرضية التراكم الميكانيكي الممكن للسياقات المحلية التي أنهكتها الجائحة، وذلك من أجل عمل تاريخي تركيبي شامل. وبصفة خاصة، غيَّر هاجس الجمع بين تاريخ الإنفلونزا الإسبانية وتاريخ الحرب العالمية الأولى سرد الحدث تغييرا عميقا.

على الرغم من النجاح المكتبي لبعض المؤلفات التي ركزت على السرد الكارثي والبطولي، مثل كتاب جون باري «الإنفلونزا العظمى: قصة الوباء الأكثر إبادة في التاريخ» الصادر عام 2004، فإن الإسطوغرافيا الأمريكية الشمالية كانت قد تصدت بشدة لهز هذه الصورة التي التصقت بوباء الإنفلونزا الإسبانية في الكتابة التاريخية. بفضل مصادر محلية كثيفة جدا، تناول المؤرخون الأمريكيون والكنديون البعد السياسي للوباء بدراسة آليات رعاية الضحايا على المستوى المحلي. وفي مواجهة عجز الطب الحديث، الذي كان في ذلك الوقت في خدمة الأثرياء والرجال الأنجلوساكسونيين من ذوي البشرة البيضاء والعقيدة البروتستانتية، أبان هؤلاء الباحثون كيف أن الوباء شكَّل محنة بالنسبة إلى عامة الناس، مما يفتح الباب أمام تاريخ الوباء الاجتماعي.

في إطار الدراسات العرقية والنسائية، يظهر كيف أن تدبير الوباء عزَّز التفاوتات الاجتماعية والسياسية، التي تؤكدها إحصائيات الوفيات، وذلك على عكس الفرضية القائلة بوحدة الهلاك الذي تسبب فيه الوباء. وإذا أخذنا بعين الاعتبار نسبة الوفيات وتأثير المرض على العائلات والمجموعات البشرية على المدى البعيد (بما في ذلك الحِداد) تظهر عواقب تفاوت الولوج إلى الخدمات الطبية، على نحو أكثر وضوحا. ويتيح هذا العجز الطبي في مواجهة الوباء، الناتج عن غياب تدابير الوقاية والإنقاذ التي قررتها النخب، إدراك الأداء اللامتكافئ لمجتمعات أمريكا الشمالية، حيث أُهملت الأقليات الأكثر ضعفاً. وينطبق هذا الاستنتاج، بكل تأكيد، على بلدان أخرى، بما في ذلك أوروبا، ولاسيما البلدان المستعمَرة، وإن كانت الدراسات قليلة بهذا الشأن. كما برزت، إبان الوباء، مجموعة من المبادرات والأعمال الخيرية التي همت الفئات الضعيفة اجتماعيا وسياسيا، واتضح الدور الحاسم الذي لعبته النساء خلال هذه المحنة بحكم تعبئة الرجال، والعلاجات التي قدّمْنها للمرضى والإغاثات التي نظّمْنها لفائدة الأهالي.

وتُضعِف هذه الدراسات، على نحو بيِّن، فكرة غياب ذاكرة الوباء الجماعية. فقد كشفت، على نطاق دقيق من حياة الأفراد والجماعات، عن العواقب ذات الأمد البعيد التي أثرت بشكل دائم على المسارات الاجتماعية. والحال أن دراسة الذاكرة الجماعية على الصعيد الوطني غالبا ما أهملت هذه المسارات باختزال الوباء في زمنية درامية، لكن قصيرة، وذلك بمحو آثار التفاوتات التي كانت خلْف تمثُّل هذا البلاء الكوني، وبتفضيل بناء ذاكرة الحرب العالمية.

وثمة اتجاه آخر في هذه الكتابة التاريخية الجديدة التي راجعت مسألة العلاقات بين الوباء والحرب العالمية. منذ 1918، أثيرت هذه العلاقات، مثلا، بمقارنة الوفيات التي تسببت فيها الحرب وتلك التي خلفتها الجائحة، إلى أي حد يمكن اعتبار الحرب العالمية سببا في ظهور الوباء وتفشيه عالميا بحكم وسائل نقل الجنود، وأيضا في حجم الوفيات؟ وهل ساهمت الإنفلونزا الإسبانية، في المرحلة الأخيرة من الصراع العسكري، في إضعاف القوات المسلحة في معسكرات العدو؟ إلى اليوم، لم تجد هذه الأسئلة التي طرحها المعاصرون جوابا إجماعيا.

في واقع الأمر، صاغ المؤرخون أسئلة العلاقات بين الإنفلونزا الإسبانية والحرب العالمية بشكل جديد، ابتداءً من سنوات 1990، بإدماج التجديد الحاصل في الأبحاث عن الصحة والطب خلال الحرب. عوض مناقشة السِّمة الخارجية أو الداخلية للوباء بالقياس إلى الحرب، انتظم السؤال حول دور تجربة الحرب داخل تجربة الوباء. بمعنى آخر، لا يتعلق الأمر بالحديث عن العلاقات بين الوباء والحرب، بل بدراسة الوباء داخل الحرب: إلى أيّ حد ساهمت تجربة الحرب، بمكوناتها السياسية والعلمية والاجتماعية، في تشكيل تجربة

الوباء؟ بهذه الطريقة، استُنطِق الحدث في أبعاده المختلفة: كيف تم الكشف عن الوباء وكيف أُطلِق الإنذار؟ كيف جرى تقييم الخطر الصحي بالمقارنة مع خطر الحرب، في وقت كانت فيه الهجومات على الجبهة الغربية قد استُأنِفت، سواء من طرف القيادة العسكرية والجنود والعائلات، أو الأطباء العسكريين؟ ما هو أثر مراقبة الخبر وتعبئة الأذهان في تجربة الوباء هذه؟ كيف عاش الناس نهاية الوباء؟

وتقدم الكتابة التاريخية الفرنسية نموذجا جيدا لمسار هذه الأسئلة الجديدة. فقد فتح سياق الحرب العالمية، الذي تفشى فيه الوباء، مقاربة أولى، وهي المرتبطة بالسياسات الصحية التي اتُّبِعت خلال الصراع. وكان الباحثان، باتريك زيلبيرمان وليون مورارد، في كتابهما عن تاريخ النظام الصحي الفرنسي الصادر عام 1996، من الأوائل الذين عالجوا الإنفلونزا الإسبانية في فرنسا استنادا إلى أرشيف مفيد. فقد انعكس تأويلهم للظرفية الصحية التي شكلتها الحرب العالمية الأولى، ضمن البناء الفاشل لنظام الوقاية العمومية الفرنسية، على سردهم للوباء. ولذلك، بلورا فرضية «أفضلية الأمة المسلحة» لتفسير آثار الوباء على البلاد. كان من نتائج التعبئة الشاملة لهيئة الأطباء المدنيين لخدمة الصحة العسكرية ابتداءً من عام 1914، وضرورة الحفاظ على أعداد العسكريين في جبهة الحرب، أن حصل تفضيل معالجة العسكريين على حساب المدنيين، إبان الوباء وقبله أيضا. ولذلك، استطاعت الحرب أن تلعب دورا في عملية انتقائية غير مباشرة خلال الوباء، مفضِّلةً الجنود، ومعزِّزةً تفاوت الولوج إلى العلاج بالنسبة إلى المدنيين. وتتيح هذه الفرضية إمكانية إعادة بناء الوباء في سياق تعبئة الهيئة الطبية في الحرب، وذلك بتقديم مضمون تاريخي ملموس في قضية الجمع التقليدي بين الحرب والوباء.

وفي إطار رؤية تاريخٍ ثقافي واجتماعي للعلوم، تناولت آنْ راسموسن في دراسة تحت عنوان «الحقيقة والزيف عن الحرب البكتيريولوجية الكبرى» (2004)، وباء 1918-1919، انطلاقا من الأبحاث الخاصة بالتعبئة العلمية والسياسية والثقافية في مواجهة تهديد العدوى إبان الحرب. فقد بلغت الوقاية من الأمراض المعدية، التي وضع أسسها الطب العسكري، شكلا من الذروة، من الناحيتين النظرية والعملية، يشهد عليه التأسيس لترتيباتٍ مؤسساتية جديدة، وممارساتٍ وقائية جماعية تستند إلى الخبرة البكتيريولوجية، وخطابٍ مرتبط بخطرٍ مُعدٍ أمام عدُو غير مرئي. غير أنه في الوقت الذي أعلن فيه الخطاب الطبي «النصر» التاريخي للعلم في مكافحة الأوبئة إبان الحرب، تسبَّب تفشي الوباء في مجموع التراب الفرنسي، وعجز السلطات الصحية، في فشل ذريع. وقد تجلى هذا الفشل في الشك العلمي والطبي إزاء هذا الوباء الذي انفلت من أساليب الوقاية التي جُرِّبت في أمراض أخرى، على مستوى الساكنة، وعلى الحدود أيضا. وبرأي هذه المؤرخة، فإن عدم التقيد بالتدابير الوقائية لحفظ الصحة هو الذي كان من وراء إعادة تشكيل مفهوم الوقاية في فرنسا، والتي جرت في البلدان الأنجلوساكسونية بعد الحرب.

لم تكن الإنفلونزا الإسبانية تعتبر فقط واحدةً من السياسات الصحية، والتي تم تنفيذها، أو عمليةً لإعادة تشكيل خطر العدوى خلال الحرب. فقد حصلت مراجعة الكرونولوجيا العامة المعتمدة للحدث، والتي التصقت بموجات الوباء الثلاث التي لوحظت فيما بعد، وبذروة الوفيات في خريف عام 1918. يمكن تتبع مجريات الوباء بدقة، من زاوية الفاعلين التاريخيين، بفضل الوثائق التي تركتها الحرب. هكذا، درست صوفيا دولابورت الكيفية التي ظهر بها الوباء وفُسِّر في التقارير الطبية التي حررها الأطباء المرافقون للجنود. انطلاقا من تجربة الوباء المباشرة كما عاشها الأطباء العسكريون في مختلف المراكز، أوضح البحث أن الوباء تشكل كحدث بالنسبة إلى هؤلاء الأطباء مع تفشيه بين ربيع 1918 وخريف 1919، وذلك بالعمل التفسيري الذي قاموا به، وتراتبية الخدمة داخل المصالح الصحية.

كان تفسير مجريات الوباء، بعد مرضٍ بدا بسيطا في فصل الربيع، محط آراء متعارضة، بعيدا عن كل إنذار فوري ومعمَّم. استثمر الباحثون الشك إزاء الطبيعة وخطورة الوباء وتفشيه للوقوف عند مسألة حيوية من شأنها الكشف عن الآليات التفسيرية للمعاصرين، ورصد الكيفية التي جعلت الإنذار يظل حبيس الوسط العسكري من فصل الربيع إلى فصل الصيف من عام 1918. بعد 11 نونبر من هذه السنة، مع الهدنة وتسريح الأطباء قلَّت الوثائق عن تطورات الوباء، رغم تفشيه المتواصل إلى حدود ربيع 1919. وعلى عكس الوباء السابق، الإنفلونزا «الروسية» لعامي 1889-1890، لم يتم أي تحقيق يهم مجموع السكان لتقديم حصيلة الإنفلونزا الإسبانية في فرنسا، مما يفسر الثغرات المرتبطة بالأهالي المدنيين والنقاشات العلمية حول طبيعة المرض، وغلبة ذاكرة النصر الوطني وتضحية «شهداء المعركة».

وعملت آنْ راسموسن على تمديد هذه الأسئلة المحيطة بتشكل حدث الوباء، في الإطار العام لِـ «مختلف أنظمة العلاقة بالحقيقة والثقة بالشهادة العلمية» خلال الحرب. من خلال البحث في الخطابات عن هذا الوباء، وحتى الإشاعات الصادرة عن الصحافة والمجلات الطبية، عبر تضارب المعلومات التي انبثقت عن هذه المرحلة، أوضحت الباحثة كيف انصهرت الشكوك التي لفَّت الوباء والمرض في التشويش العام على الخبر خلال الحرب، التي لم تكن فيها الرقابة على الصحافة سوى مكوِّن من مكوناتها. ففي الوقت الذي صادفت فيه بداية الوباء العودة من الحرب في ربيع 1918، كان رواج الأخبار وتأويلها معقدا. وترى آنْ راسموسن أن حدث الإنفلونزا الإسبانية لم يعد حدثا موحدا في الفضاء العمومي إلا بعد عدة أشهر لما انكشف الوباء في صفوف العائدين من الحرب. وعمليا، لم يمنح المعاصرون وحدةً لمجموع الملاحظات المجمَّعة منذ أبريل 1918، إلا عندما استفحلت الوفيات في صيف 1918، وخصوصا لما تفاقم تضارب الأخبار العلمية التي نقلتها الصحافة المتخصصة والعامة.

وإذا كان مثال الإسطوغرافيا الفرنسية مفيدا من حيث تطور الأسئلة، فإنه لم يكن فريدا. بمعالجة الوباء من زاوية العسكريين الأمريكيين، اقترحت كارول بايرلي طريقة نموذجية لتقسيم وحدة الزمان والمكان التي اتبعتها الدراسات التاريخية للبحث في الوباء. فقد قطعت هذه المؤرخة مع الأبحاث التي ركزت على التراب الأمريكي، وأعطت مكانة هامة لمسرح الصراع الأوروبي خلال الحرب العالمية التي دخلتها الولايات المتحدة رسميا في أبريل عام 1917. وبالبحث في الموضوع على واجهتين جغرافيتين، بيَّنت بايرلي أن الجيش الأمريكي وجد نفسه إبان الوباء في مواجهة زمنيات وضرورات متباينة، صعب الجمع بينها في بعض الأحيان، بين أمريكا ومسرح الصراع في أوروبا. ففي فرنسا وإنجلترا، تشابك الوباء في العلاقات بين القوات الأمريكية الخارجية وقوات التحالف، في الوقت الذي كانت فيه الحرب تضع أوزارها، وفي العلاقات المعقدة بين القيادة العسكرية والمصالح الطبية الأوروبية والأمريكية، وأخيرا في العلاقات بين السلطات المدنية والسلطات العسكرية. ولذلك، عوَّضت بايرلي كرونولوجيا الوباء الخطية بسرد ظهرت فيه هذه الأخيرة على نحو متعاقب في شكل سؤال عسكري أمريكي مع ظهور أولى الحالات الوبائية خلال فصل شتاء 1917-1918 في القواعد العسكرية بمنطقة البحيرات الكبرى، قبل أن تتضاعف عند لقاء الطرفين. هكذا حصلت ذروة الوفيات في فصل الخريف كمرحلة خطيرة ضمن مسارٍ كان قد انطلق منذ شهور، حيث اختلطت الاعتبارات السياسية والصحية والعسكرية.

لقد فتحت هذه الاتجاهات الجديدة في كتابة التاريخ دروبا مبتكَرة لتناول الإنفلونزا الإسبانية. ففي مستويات ميكروتاريخية، صار الأمر يتعلق، من ثمة فصاعدا، بدراسة هذا الوباء ليس كحدث محدَّد أدهش المعاصرين منذ ظهوره، وإنما كوباء انتشر انتشارا كبيرا، وحامت حوله الشكوك، وكان محط تأويلات متضاربة، حيث تداخلت آثاره مع التفاوتات الاجتماعية المرتبطة بخصوصية مختلف المجتمعات، والتي تفاقمت بفعل التعبئة في المجهود الحربي (1914-1918).

4. الإنفلونزا الإسبانية كمرحلة من تاريخ الأمراض المعدية

لقد تجدد سؤال وباء الإنفلونزا الإسبانية في المدة الأخيرة بعدما تشكل أول الأمر كحدث استثنائي وكارثي، ثم فُسِّر من جديد انطلاقا من الإشكاليات المرتبطة بالحرب العالمية. ووُظِّفت هذه الإشكاليات مرة أخرى في دراسة الوباء في إطار تاريخ الأمراض المعدية، بموضعة الحدث في زمنية أطول، ثم عادت إلى التساؤل كيف عرفت الأنفلونزا مسارا إسطوغرافيا فريدا مقارنةً بالأمراض الأخرى، ولاسيما المعدية، وإلى أي مدى شكلت هذه الجائحة لحظة حاسمة في تحولات المشكلة التي مثَّلها هذا المرض بالنسبة إلى الصحة العامة أو للعلوم الطبية. وفي الوقت الذي شدَّت فيه هذه الإنفلونزا انتباه المؤرخين، انصهر الحدث في تاريخ

العلوم الطبية منذ نهاية القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين. وكانت الدراسات البريطانية، بكثافتها، هي الأسرع في الكشف عن درب جديد في هذا المجال من البحث.

من هنا، تبنَّى مارك هونيغسبوم وميخائيل بريساليه تساؤلات مميزة لمعالجة تاريخ الإنفلونزا في بريطانيا، لكنهما تقاسما تحقيبا أخذ بعين الاعتبار دراسة جائحتين: الإنفلونزا الروسية (1889-1890) والإنفلونزا الإسبانية (1918-1919). اقترح مارك هونيغسبوم تناول تاريخ الوباء بالبحث في الكيفية التي يشكل فيها المرض، الذي اتسم بتعدد الحالات السريرية، مرصدا مواتيا لتحليل حدوده التي ارتبطت جِدَّته بقلق المجتمع الفيكتوري (نسبةً للملكة فيكتوريا). في هذا التاريخ الطبي والثقافي، رسم هونيغسبوم تطور التمثلات الطبية والشعبية للإنفلونزا ما بين 1890 و1920 كنتيجة مشتركة لانفجار الأخبار الصحفية التي ضخمت حدث الوباء، وللصبغة المرَضية للإرهاق النفسي الذي تسببت فيه مخاوف الحياة الحضرية ومخاطرها، ولبروز طب المراقبة الذي أضفى سمة الفردانية على تقدير الحالة الصحية. في هذا السياق، ارتبط تدبير الوباء بتحديد هوية المرض المتغيرة الشكل، وتسييس المشاعر الناجمة عن تعبئة الحرب العالمية من الناحية الثقافية.

ومن جهته، درس ميخائيل بريساليه الإنفلونزا الإسبانية من زاوية تاريخ العلوم وتحولات هوية هذه الإنفلونزا من الناحية الطبية، على النحو الذي تطورت به الأمور بعد جائحة 1889-1890. كانت الإنفلونزا الروسية قد خلقت عملية تحديد أولى للمعارف الخاصة بالمرض لفائدة الملاحظات الجديدة التي قدمها علم الوباء عن تفشي المرض على الصعيد العالمي، وخاصة لمصلحة أولى الأبحاث البكتيريولوجية. فقد مكن اكتشاف باسيل الإنفلونزا من طرف ريتشارد فايفر عام 1892، والذي أكدته أبحاث أخصائيي البكتيريا البريطانيين، من إعادة تعريف الوباء كمرض تعفُّني ومعدٍ، وهي تحديدات لم تكن معروفة من قبل. وفي سرده، شكلت مرحلة ما بين الحربين لحظة أخرى رئيسية لتحول هوية المرض في إنجلترا، عندما استطاع الباحثون بمعهد الأبحاث الطبية دراسة فيروس الإنفلونزا في المختبر. هنا، احتلت الإنفلونزا الإسبانية والحرب العالمية معا مكانة مركزية، لكن عابرة في عملية «الفوْرَسَة العلمية» اللاحقة على المرض، بإشراك التوجه الجديد في البحث الطبي لما بعد الحرب. وإذا كان وباء 1918-1919 قد شكَّل أزمة بالنسبة إلى المعارف البكتيريولوجية، وهي تواجه فرضيات جديدة من حيث مسببات المرض عقب الجدل الذي أحاط باكتشاف فايفر، فإنه عزَّز التنظيم العسكري للبحث الطبي خلال الحرب داخل المختبر، حيث صار نموذجا اقتدت به المؤسسات المدنية فيما بعد.

لقد مكنت دراسات هذين الباحثين إذن من توسيع الإطار الزمني لتاريخ الإنفلونزا، بالأخذ بعين الاعتبار تحولات هوية المرض بعد الجائحة الروسية، مما أتاح إعادة بناء تاريخ إنفلونزا 1918-1919 ضمن نسيج ذي أمد طويل. وبالنسبة إلى الحالة الفرنسية، ارتكزت محاولتنا على تشكل الوباء انطلاقا من الإنفلونزا الروسية إلى غاية مرحلة ما بين الحربين. ففي تحقيبٍ مدمِجٍ للإنفلونزا الإسبانية في سياق حدث جرى في الزمن الطويل، يظهر المرض كلغز بالنسبة إلى المعارف الطبية الجديدة المنبثقة من المختبر، كما أوضحنا ذلك في دراسة منشورة عام 2015. وتمثل الأهمية التي أُعطيت لمضاعفات الإنفلونزا من طرف الأطباء، وخصوصا ما تعلق بالأمراض الصدرية والتنفسية، عائقا مستداما لاعتبار هذا المرض المتغير الشكل كمشكلة قائمة الذات بالنسبة إلى الصحة العمومية، من الإحصائيات الوقائية إلى اللجوء إلى المضادات الحيوية لمواجهة المضاعفات البكتيرية.

وأخذت الكتابة التاريخية الأمريكية هي أيضا، وجهات جديدة لدراسة الوباء فيما وراء الإنفلونزا الإسبانية، في إطار تاريخ العلوم. ومن الدراسات الهامة بهذا الشأن تلك التي أنجزها جون آيلر عام 2009، التي أوضحت بأن الوباء قدم ميدانا للمبادرة بالنسبة إلى جماعات الأطباء مواصَلةً لمحاولات التلقيح الأولى ضد وباء 1918-1919 بالولايات المتحدة، مؤسِّسة بذلك لأولى المعايير المتبعة للقيام بتجارب علاجية تحت المراقبة، رغم ضعف فعالية التلقيح. وبيَّن جون آيلر كذلك أهمية الأزمة التي خلقها الوباء داخل الجماعة الطبية فيما يتصل ببروز أولى الأبحاث الخاصة بعلم الفيروسات بالولايات المتحدة. لقد ساهم تنافر المعارف البكتيريولوجية، الذي كشف عنه الوباء، في ظهور مقاربات جديدة في علم الأوبئة، مثل الدراسات المصلية وارتقاء علم الوباء التجريبي الرامي إلى سبر أغوار لغز تعرض الإنسان إلى أوبئة الإنفلونزا.

وأخيرا، في إطار تاريخ الصحة العمومية الوطنية، اقترح جورج ديهنر عام 2012 رسم تاريخ مسار الإنفلونزا في الولايات المتحدة في القرن العشرين. وإذا كان عماد دراسته قد تمثَّل في الفضيحة التي اندلعت بالبلاد من خلال حملة التلقيح الجماعية ضد المرض عام 1976، والتي اشتغل عليها في أطروحته، فإن البحث الذي أنجزه يعود في أصوله الزمنية إلى جائحة 1918-1919. وبعيدا عن الجائحة المنسية التي وصفها كروسبي، صارت الإنفلونزا الإسبانية هنا نقطة انطلاق لتعبئة وطنية ثم دولية، كان فيها الباحثون الأمريكيون، وخاصة علماء الفيروسات، هم الفاعلون الرئيسيون؛ فقد لعب هؤلاء حقا دورا حاسما في الكشف عن اتساع تفشي الفيروس، وفي مكافحة المرض إبان الحرب العالمية الثانية، الذي خضع فيما بعد لمراقبة منظمة الصحة العالمية التي رأت النور عام 1947. انطلاقا من الحدث الذي شكلته هذه الجائحة الاستثنائية في 1918-1919، أصبحت الإنفلونزا موضوعا للبحث التاريخي في مشكلة عمومية ذات حساسية كبيرة في الولايات المتحدة، كما يظهر جليا من «قضية إنفلونزا الخنازير» لعام 1976. يعتبر هذا التاريخ الأمريكي

المرتبط بالإنفلونزا خلال القرن العشرين أكثر إثارة، خاصة وأنه يتعارض بشدة مع سياقات وطنية أخرى. ولذلك، يبيّن المؤرخ الألماني ويلفريد وايت، صاحب أطروحة عن وباء 1918-1919 في منطقة بادن جنوب غرب ألمانيا، كيف غاب تمثُّل الإنفلونزا الإسبانية والخوف من هذه الجائحة في البلاد غيابا تاما حتى سنوات 1990.

خاتمة

منذ مؤتمر الكابْ الدولي المنعقد عام 1998، تزايد الطلب الاجتماعي والسياسي على الخبرة التاريخية المرتبطة بالتحضير لجوائح الإنفلونزا تزايدا عظيما، وطنيا ودوليا. فقد ساهم مفهوم «الأمراض الناشئة» كما يقول نيكولاس كينغ، والذي تبلور في نهاية سنوات 1980، في تعزيز الضرورة المؤسساتية لأخذ العبر من دروس الماضي من أجل الاستعداد للكوارث ذات الأصل المعدي «الطبيعي» أو الإرهابي، وتحسيس السكان بهذه التهديدات الجديدة. في هذا السياق، راجت مثلا تقديرات الوفيات إبان الإنفلونزا الإسبانية، المنشورة عام 2002 من طرف نيال جونسون ويورغن موليز، رواجا عالميا منقطع النظير في أوساط الخبراء كما في صفوف الصحفيين، رغم الشكوك التي حامت حولها.

لقد أبان تنظيم عدد من المؤتمرات الدولية حول تاريخ الإنفلونزا الإسبانية عن مختلف المقاربات لفهم الماضي. بهذا الصدد، يعتبر المؤتمر الذي نظمه معهد علم الأمصال بمدينة كوبنهاغن نموذجيا فيما يتعلق بتنوع الرؤى، حيث حضر إلى جانب المختصين في علم الأوبئة، المنفتحين على الدراسات التاريخية، المؤرخُ البريطاني، العارف بتاريخ الأمراض الأوبئة، مارك هونيغسبوم بمقاربته التاريخية؛ فقد استثمر هؤلاء العلماء ميدان التاريخ، وخاصة معطيات الوفيات المتوفرة، قصد توصيفِ تباينات أوبئة الماضي ونِسب تكررها في الماضي، أو محاولةِ اختبار فعالية التدابير الوقائية المستخدمة تاريخيا.

وتشكل الإنفلونزا الإسبانية أيضا، تحدّيا في وجه علماء الفيروسات، بالبحث في لغز التاريخ الطبيعي لفيروس عام 1918. وقد مثَّل نجاح عملية عزل الجينوم الفيروسي وإعادة صنعه، تقدما مرموقا مكَّن الباحثين من تأليف الكثير من الكتب عن صيادي الفيروسات، كما يظهر مثلا من كتاب الأمريكية جينا كولاتا «قصة الإنفلونزا الإسبانية والبحث عن فيروسها»، الصادر عام 1999. فبعد عدة محاولات فاشلة خلال سنوات 1950، استطاع فريق من علماء الفيروسات بقيادة جيفري توبينبيرجي، بالمعهد العسكري لعلم الأمراض الأمريكي، صنع خلية كاملة من فيروس الحمض النووي الريبوزي. وقد أثيرت فرضيات عدة عن أصل فيروس 1918: هل حصل مرورٌ عبر وسيط مضيف، مثل الخنزير؟ هل تحوَّل من سلالة الطيور فخلق

صنفا قابلا للانتقال إلى الإنسان؟ عبَّر الباحثون عن فرضيات منطقية كثيرة، لكن من دون أن تنتصر فرضية معينة على الفرضيات الأخرى. هل حصل التحول في الصين، كما تقول فرضية تقليدية عن الأوبئة القادمة من الشرق، والتي صارت ذات راهنية بواسطة الأخبار المعاصرة عن إنفلونزا الطيور؟ أو في الولايات المتحدة، بحسب فرضية مقبولة عموما، داخل قاعدة فوستون، حيث ظهرت حالات الإنفلونزا منذ فصل شتاء 1917-1918؟ أو في أوروبا، بقاعدة إيتابل، كما يدعي الفريق البريطاني الذي يقوده البروفيسور جون أكسفورد، بالاستناد إلى بيانات طبية تعود إلى فترة 1916-1917، والتي تشير إلى تنامي حالات أمراض الجهاز التنفسي والزكام الحادة، في قاعدة عسكرية كان يزدحم داخلها آلاف الرجال والحيوانات؟ وتقدم أسئلة التطور الوراثي هذه فرصة علمية أكيدة مواتية للتخصصات والمعارف، التي من شأنها أن تغني التاريخ الطبيعي لفيروس الإنفلونزا. لكنها أسئلة لا تمكِّن من إشراك المؤرخين بسهولة.

تبيِّن حصيلة التيارات الإسطوغرافية المعاصرة حول الإنفلونزا الإسبانية، كما يظهر في هذه الدراسة، أهمية العمل المنجز منذ أول محاولة تركيبية خلال مؤتمر 1998. فقد حلت تصورات جديدة محل المستويات الأولى من الإسطوغرافيا العالمية قبل هذا التاريخ، وإن كانت صعبة الاندماج في «دروس الماضي». لقد انصهر هذا الوباء في أسئلة تاريخية متعددة عملت على وضع الجائحة في تحقيبات عريضة في الغالب، حيث لم تعد تجربة الوباء المحلية مجرد اختزال لسياق عالمي. وأعيد النظر في بعض الافتراضات المتصلة بالأبحاث التاريخية الأولى، مثل «نسيان» الجائحة أو تفشيها المتساوي في أوساط السكان. وهذه الأبحاث تُظهر بعض العقبات على الصعيد الوطني الذي تبنَّته الإسطوغرافيا خلال عقود عديدة كمقياس للاشتغال، بالقدر الذي يجعل هذا الصعيد مفهوما كوسيلة لبلوغ تاريخ عالمي فتَّته بشدة حدثٌ متغيِّرٌ تغيُّرا كبيرا، ومرتبطٌ بسياقات محلية.

بعد مئة سنة عن تفشيها، لم تعد استثنائية جائحة 1918 تدْرَس من طرف المؤرخين على نحو منعزل، بل اندمجت في إطار التواريخِ المحلية والوطنية ذات الأمد البعيد أكثر فأكثر، وتاريخِ الأبحاث العلمية عن الإنفلونزا، أو مكانةِ هذه الأخيرة في تاريخ الصحة العمومية الدولية.

لائحة مراجع مختصرة:

- Byerly, Carol R. (2005). *Fever of War: The Influenza Epidemic in the U.S. Army During World War I*. New York; London: New York University Press.
- Collier, Richard (1974). *The Plague of the Spanish Lady*. New York: Antheneum.
- Crosby, Alfred (1989). *America's Forgotten Pandemic. The Influenza of 1918*. New York: Cambridge University Press (first published, 1976).
- Eyler, John M. (2009). "The fog of research: influenza vaccine trials during the 1918-19 pandemic". *Journal of the History of Medicine and Allied Sciences*, 64, pp. 401-428
- Graves, Charles (1969). *Invasion by Virus: Can it Happen Again?* London: Icon Books Limited.
- Hoehling, Adolph (1961). *The Great Epidemic*. Boston: Little & Brown.
- Honigsbaum, Mark (2009). *Living with Enza: the Forgotten Story of Britain and the Great Flu Pandemic of 1918*. London; New York: Macmillan.
- McNeill, William H. (1978). *Le temps de la peste. Essai sur les épidémies dans l'histoire*. Paris: Hachette.
- Neustadt, Richard E.; Fineberg, Harvey V. (1978). *The swine flu affair: decision-making on a slippery disease*. Washington, DC: US Government Printing Office.
- Phillips, Howard; Killingray, David (eds) (2003). *The Spanish Influenza Pandemic of 1918-19: New Perspectives*. London; New York: Routledge.
- Rasmussen, Anne (2004) "Du vrai et du faux sur la Grande Guerre bactériologique. Savoirs, mythes et représentations des épidémies", in C. Prochasson, A. Rasmussen (dir), *Vrai et faux dans la Grande Guerre*. Paris: La Découverte, pp. 189-217
- Vagneron, Frédéric (2015). "Surveiller et s'unir ? Le rôle de l'OMS dans les premières mobilisations internationales autour d'un réservoir animal de la grippe". *Revue d'anthropologie des connaissances*, 9 (2), pp. 139-162
- Veyne, Paul (1971). *Comment on écrit l'histoire. Essai d'épistémologie*. Paris: Seuil (rééd. 1996).

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020

All rights reserved © 2020